الفصل الخامس

القصص الوعظية

١- آية للحماية

حدّثنا إبراهيم بن رَباح، قال: حدّثنا أبو عبد اللّه أحمد بن أبى دُؤَاد، قال: حدّثنا الواثق، قال: حدّثنا المعتصم:

أنّ قومًا ركبوا البحر، فسمعوا هاتفًا يهتف بهم، مَن يعطينى عشرة آلاف دينار حتى أعلّمَه كلمةً، إذا أصابه غمّ، أو أشرف على هلاك، فقالها، انكشف ذلك عنه.

فقال رجل من أهل المركب، معه عشرة آلاف دينار، فصاح: أيّها الهاتف أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، وعلّمنى.

فقال: ارم بالمال فى البحر، فرمى به، وهو بدرتان فيهما عشرة آلاف دينار.

فسمع الهاتفَ يقول: إذا أصابك غَمٌّ، أو أشرفْتَ على هَلَكة، فاقرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فقال جميع من فى المركب للرجل: لقد ضيّعتَ مالك.

فقال: كلاّ، إنَّ هذه لعظة ما أشكّ فى نفعها.

قال: فلمّا كان بعد أيّام، كُسِرَ بهم المركب، فلم ينج منهم أحدٌ غير ذلك الرجل، فإنّه وقع على لَوْح.

فحدّث بعد ذلك، قال: طرحنى البحر على جزيرة، فصعدتُ أمشى فيها، فإذا بقصر منيف، فدخلته، فإذا فيه كل ما يكون فى البحر من الجواهر وغيرها، وإذا بامرأة لم أر قطّ أحسن منها.

فقلت لها: مَن أنتِ وأىّ شىء تعملين ههنا؟

قالت: أنا بنت فلان ابن فلان التاجر بالبصرة، وكان أبى عظيم التجارة، وكان لا يصبر عنّى، فسافر بى معه فى البحر، فانكسر مركبنا، فاختُطفتُ، حتّى حَصَلْتُ فى هذه الجزيرة، فخرج إلىَّ شيطان من البحر، يتلاعب بى سبعة أيّام، من غير أن يطأنى، إلاّ أنه يلامسُنى، ويؤذينى، ويتلاعب بى، ثم ينظر إلىَّ، ثم ينزل إلى البحر سبعة أيام، وهذا يوم موافاته، فاتق اللّه فى نفسك، واخرج قبل موافاته، وإلا أتى عليك.

فما انقضى كلامُها حتى رأيتُ ظُلْمةً هائلة، فقالت: قد واللّهِ جاء وسيهلكك.

فلما قرب منى، وكاد يغشانى، قرأتُ الآية، فإذا هو قد خر كقطعة جبل، إلا أنّه رمادٌ محترق.

فقالت المرأة: هَلك واللّهِ، وكُفِيتُ أمرَه، مَن أنت يا هذا الذى منّ اللّه علىّ بك؟

فقمتُ أنا وهى، فانتخبنا ذلك الجوهر، حتى حملنا كلّ ما فيه من نفيس وفاخر، ولزمنا الساحل نهارنا أجمع، فإذا كان الليل، رجعنا إلى القصر.

قال: وكان فيه ما يؤكل، فقلت لها: من أين لكِ هذا؟

فقالت: وجدته ههنا.

فلما كان بعد أيّام رأينا مركبًا بعيدًا، فلوحنا إليه، فدخل، فحَمَلَنَا، فسلمنَا اللّه تعالى إلى البصرة، فوصفَتْ لى منزل أهلها، فأتيتهم.

فقالوا: مَن هذا؟

فقلت: رسول فلانة بنت فلان.

فارتفعت الواعية[1]، وقالوا: يا هذا لقد جددت علينا مصابنا.

---

(١) الصراخ والبكاء على الميت.

فقلت: اخرجوا، فخرجوا.

فأخـذتُهم حتى جـئتُ بهم إلى ابنتهم، فكادوا يمـوتون فرحًـا، وسألوها عن خبرها، فقصّته عليهم.

وسألتهم أن يـزوجونى بها[1]، ففـعلوا، وحصّلنا ذلك الجـوهر رأس مال بينى وبينها، وأنا اليوم أيسر أهل البصرة، وهؤلاء أولادى منها.

●●●

(١) أراد واضع الحكاية أن يحتفظ برمـوز العفة سليمة، فهذا الشـيطان البحرى احتفظ بالفتـاة عذراء (غير أنه يتلاعب بها) أما الرجل التقى الذى دفع ثروته نظير آية كريمـة، فإنه صاحب الفتاة حتى طلب من أهلها أن يزوجوه منها.

٢- دُعاءٌ للخَلاص

قال لى المعلى بن أيّوب:

أعنتنى[١] الفضلُ بن مروان، ونحن فى بعض الأسفار وطالبنى بعمل طويل يُعمل فى مدة بعيدة، واقتضانيه فى كلّ يوم مرارًا، إلى أن أمرنى عن المعتصم باللّه أن لا أبرحَ إلاّ بعد الفراغ منه.

فقعدتُ فى ثيابى، وجاء الليل، فجعلتُ بين يدىّ نفّاطة[٢]، وطرح غلمانى أنفسهم حولى، وورد علىّ همٌّ عظيم، لأننى قلت: ما تجاسر على أن يوكِّل بى إلا وقد وقف على سوء رأى فىَّ من المعتصم.

فإنّى لجالس، وذَقنى على يدى، وقد مضى الليل، وأنا متفكّر، فحملتنى عيناى، فرأيت كأنّ شخصًا قد مَثُل بين يدى، وهو يقول: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

ثم انتبهتُ، فإذا أنا بمشعَل قد أقبل من بعيد، فلما قُرب منى كان وراءه محمد ابن حماد دَنْقَش صاحبُ الحرس، وقد أنكر نفاطتى، فجاء يعرف سببها، فأخبرته خبرى.

فمضى إلى المعتصم، فأخبره، فإذا الرُسل يطلبونى، فدخلتُ إليه، وهو قاعد، ولم يبق بين يديه من الشمع إلا أسفلُه.

فقال لى: ما خبرك؟ فشرحته له.

---

(١) الإعنات: التضييق والاضطهاد، وكان الفضل -وهو وزير المعتصم- يضطهد المعلى وهو كاتب الخليفة كما سيظهر.

(٢) النفاطة: المصباح المضاء بالنفط.

فقال: ويلى عـلى النَّبَطىّ، يَمْتَهِنُك، وأىُّ يدٍ له عليك، أنت كاتـبى، كما هو كاتبى، انصرف.

فلما ولَيْتُ، ردَّنى، واستدنانى، ثم قال لى: تمضى مُدَيْدَة، ثم ترى فيه ما تُحبّ.

قال: فانصرفتُ، وبكَّرت إلى الفضل على عادتى، لم أنْكِر شيئًا.

●●●

٣- الانشراح

وأمّا الخبر فى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، فإنّ أبا بكر بن شُجاع، المُقرئَ البغدادى، الذى كان يخلفنى على العيار فى دار الضَّرْب بسوق الأهواز، فى سنة ست وأربعين وثلثمائة، وكان خازن المسجد الجامع بها، وكان شيخًا محدّثًا ثقةً نبيلاً، من أمناء القاضى الأحنف وهو محمد بن عبد اللَّه بن على ابن محمد بن أبى الشوارب، حدّثنا بإسناد له ذكره، لم أحفظه، ولا المتن بلفظه، وبَعُدَ عن يدى إخراجه من الأصل، وقد تحريتُ مقاربة اللفظ بجهدى، ولعله يزيد أو ينقص:

أنّ بعض الصالحين، ألحَّ عليه الغمّ، وضيقُ الصدر، وتعذّر الأمور حتى كاد يَقْنَطُ، فكان يومًا يمشى، وهو يقول:

أرى الموتَ لمن أمسى ... على الذلّ له أصْلَحْ

فهتف به هاتف، يُسمع صوته، ولا يُرى شخصه، أو أرىَ فى النوم -أنا الشاكّ- كأنّ قائلاً يقول:

ألا يا أيّها المرءُ ... الذى الهمُّ به بَرَّحْ

إذا ضاق بك الأمر ... ففكّر فى ألَمْ نَشْرَحْ

قال: فواصلتُ قراءتها فى صلاتى، فشرح اللَّه صدرى، وأزال همّى وكربى، وسهّل أمرى -أو كما قال.

وحدّثنى غيره بهذا الخبر، على قريب من هذا، وزادنى فى الشعر:

فإنّ العُسْرَ مقرونٌ ... بيسرين فلا تَبْرَحْ[1]

---

(١) فى سورة الشرح تكرر العُسر مرتين بـ «ال» المعرفة، وتكرر اليسر (نكرة) مرتين، وإذا تكررت المعرفة كانت هى الأولى بذاتها، أما النكرة فتكون غير الأولى، وهذا معنى أن العسر فى السورة واحد. واليسر اثنان، ولن يتغلب واحد على اثنين.

٤- الاستغفار طريقُ الفَرَج

إنّ أعرابياً شكى إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام شدّة لحفته، وضيقًا فى الحال، وكثرة من العيال.

فقال له: عليك بالاستغفار، فإنّ اللّه تعالى يقول: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]... الآيات.

فعاد إليه، وقال: يا أمير المؤمنين قد استغفرت كثيرًا، وما أرى فَرجًا مما أنا فيه.

قال: لعلّك لا تُحسنِ أن تستغفر.

قال: علّمنى.

قال: أخلص نيّتك، وأطع ربّك، وقل: اللّهم إنّى أستغفرك من كلّ ذنب، قَوِىَ عليه بدنى بعافيتك، أو نالته يدى بفضل نعمتك، أو بسطتُ إليه يدى بسابغ رزقك، أو اتّكلتُ فيه، عند خوفى منه، على أناتِك، أو وثِقْتُ فيه بحلمك، أو عوّلتُ فيه على كَرَمِ عفوك.

اللّهم إنّى أستغفرك من كلّ ذنب خُنْتُ فيه أمانتى، أو بخَستُ فيه نفسى، أو قدّمت فيه لذّتى، أو آثرتُ فيه شهوتى، أو سَعَيْتُ فيه لغيرى، أو استغويتُ فيه مَن تَبِعَنى، أو غَلَبْتُ فيه بفضل حيلتى، أو أحلتُ فيه عليك يا مولاى، فلم تؤاخذنى على فعلى، إذ كنتَ -سبحانك- كارهًا لمعصيتى، لكن سبق علمك فىّ باختيارى، واستعمالى مرادى وإيثارى، فحَلُمْتَ عنّى، لم تدخلنى فيه جبرًا، ولم تحملنى عليه قهرًا، ولم تظلمنى شيئًا، يا أرحم الراحمين: يا صاحبى عند شدّتى، يا مؤنسى فى وحدتى، ويا حافظى عند غُربتى، يا وليّى فى نعمتى، ويا كاشف كُربتى، ويا سامع دعوتى، ويا راحم عَبرتى، ويا مُقيل عَثرتى. يا إلهى بالتحقيق، يا ركنى الوثيق، يا رجائى فى الضيق، يا مولاى الشفيق، ويارب البيت العتيق،

أخـرجنى من حَلقَ المضـيق، إلى سَعَـة الطريق، وفَـرَجٍ من عندك قـريب وثيق، واكشف عنّى كلّ شدّة وضيق، واكفنى ما أطيقُ وما لا أطيق.

اللّهمّ فرّج عنّى كلّ همّ وكرب، وأخـرجنى من كلّ غمّ وحزن، يا فارج الهمّ، ويا كـاشف الغمّ، ويا منزل القَطْر، ويا مـجـيب دعوة المضطر، يـا رحمن الدنيـا والآخرة ورحيمها، صلّ على خيـرتك محمد النبىّ، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وفَرِّج عنّى ما ضاق به صدرى، وعيلَ معه صَبْرى، وقلت فيه حيلتى، وضعفت له قووّتى، يا كاشفَ كلّ ضـرّ وبليّة، ويا عالمَ كل سّر وخفيّـة، يا أرحم الراحمين، وأفوّض أمرى إلى اللّه، إنّ اللّه بصيرٌ بالعباد، وما توفيقى إلاّ باللّه، عليه توكلّتُ، وهو ربّ العرش العظيم.

قـال الأعرابى: فـاستـغـفرتُ بذلك مـرارًا، فكشف اللّه عَـزَّ وجَلَّ عنّى الغم والضيق، ووسّع علىّ فى الرزق، وأزال عنّى المحنة.

●●●

٥- العِلْمُ بالكتاب

قال إبراهيم التيْمى:

لما حُبِستُ الحَبْسَةَ المشهورة، أدخلتُ السجن، فأنزلتُ على أناس فى قيد واحد، ومكان ضيّق، لا يجد الرّجل إلاّ موضع مجلسه، وفيه يأكلون، وفيه يتغوطّون، وفيه يُصَلُّون.

قال: فجىء برجل من أهل البحريْن، فأدخل علينا، فلم نجد مكانًا، فجعلوا يتبرّمون به، فقال: اصبروا، فإنّما هى اللّيلة.

فلمّا دخل اللّيل، قام يُصلى، فقال: ياربّ، مننتَ على بدينك، وعلّمتنى كتابَك، ثم سلّطت علىّ شرّ خلقك، ياربّ، الليلةَ، اللّيلةَ، لا أصبح فيه.

فما أصبحنا حتّى ضُرِبتْ أبوابُ السجن: أين البحرانى، أين البحرانى؟ فقال كلّ منّا: ما دُعِىَ الساعة، إلاّ ليُقتل، فخُلِّىَ سبيلُه.

فجاء، فقام على باب السجن، فسلّم علينا، وقال: أطيعوا اللّه لا يُضيِّعْكم[1].

●●●

(١) فى هذا الخبر (القصة) دلالات متعددة، فراويه إبراهيم التيمى من الزهاد، حبسه الحجاج، وقتله ومثل به (فيما بعد) لكنه يحكى هنا عن رجل بحرينى مستور، تعلم كتاب الله وأطاعه، فكانت لديه الثقة بالفرج!! وفى هذا العصر (ولعله تقليد قديم نجد ملامحه فى هذا النص) ينسب إلى البحرين: بحرْينى، فإذا قيل: بحرانى، فالمنسوب من الشيعة!! هكذا عرفنا من أهل البحرين. واللّه أعلم.

٦- قصّة أصحابِ الأخدود

وذكـر اللَّه سبـحانه وتعـالى، فى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، أصحابَ الأخدود، وروى قوم من أهل الملل المخالفة للإسلام عن كتبهم أشياء من ذلك، فذكرت اليـهودُ والنّصارى: أنّ أصحاب الأخـدود كانوا دعاةً إلى اللَّه، وأنّ ملك بلدهم، أضرم لهم نارًا، وطـرحهم فيهـا، فاطّلع اللَّه تعالى على صـبرهم، وخُلُوص نيّاتهم فى دينه وطاعته، فأمر النار أن لا تحرقـهم، فشوهدوا فيها قعودًا، وهى تضطرم عليـهم، ولا تحـرقهم، ونجـوا منها، وجـعل اللَّه دائرة السـوْءِ على الملك، وأهلكه.

●●●

٧- فَرَجٌ عَام

حكى عبيد اللَّه بن سليمان، وكان وزيرًا، عن أبيه سليمان بن وَهب، أنه قال:

كنتُ يومًا فى حبس محمد بن عبد الملك الزيات[١]، فى خلافة الواثق، آيس ما كنتُ من الفرج، وأشدّ محنة وغمّاً، حتى وردت علىّ رقعة أخى الحسن بن وهب، وفيها شعر له:

مِحَنٌ أبا أيّوب أنت مَحَلُّها ... فإذا جزعتَ من الخطوب فمَنْ لها

إنّ الّذى عقد الّذى انعقدت به ... عُقَد المكارِهِ فيك يُحسِنُ حلَّها

فاصبر فإنّ الله يُعقِبُ فُرْجَةً ... ولعلّها أن تنجلى ولعلّها

وعسى تكونُ قريبة من حيث لا ... ترجو وتمحو عن جديدك ذلَّها

قال: فتفاءلتُ بذلك، وقَوِيَتْ نفسى، فكتبتُ إليه:

صبّرتنى ووعظتَنى وأنالها ... وستنجلى، بل لا أقول: لعلَّها

ويَحُلُّها مَن كان صاحبَ عَقْدِها ... ثقةً به إذ كان يملك حلَّها

قال: فلم أصلِّ العَتَمةَ ذلك اليوم، حتّى أطلقتُ، فصلّيتُها فى دارى ولم يمضِ يومى ذاك، حتّى فَرَّج اللَّه عنّى، وأطلقتُ من حَبْسى.

وروى أنّ هاتين الرقعتين وقعتا بيد الواثقِ[٢]، الرسالة والجواب، فأمر بإطلاق سليمان، وقال: واللَّه، لا تركتُ فى حبسى مَن يرجو الفَرَج، ولا سيّما مَن خَدَمَنى، فأطلقه على كُرْهٍ من ابن الزيّات لذلك.

---

(١) كان ابن الزيات وزيرًا للمعتصم، ثم الواثق، وكان يتفنن فى التعذيب، حتى صنع تنورًا (فرنًا) من الحديد بداخله مسامير، وحين جاء الخليفة المتوكل أذاقه من نفس الكأس. أما سليمان بن وهب (الذى عذَّبه الزيات) فقد كان كاتبًا مهمًا، ثم وزيرًا فيما بعد.

(٢) الخليفة العباسى.

٨- قصّة دانيال عليه السلام

وذكر هؤلاء القوم: أنّ نبيّاً، كان فى بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام بزمان طويل، يُقال له دانْيال[١]، وأنّ قومه كذّبوه، فأخذه ملكهم، فقذفه إلى أسْد مجوّعة فى جُبٍّ، فلمّا اطّلع الله تعالى على حُسن اتّكاله عليه، وصبره طلبًا لما لديه، أمسك أفواه الأسْد عنه، حتى قام على رؤوسها برجليه، وهى مذلّلة، غير صارّة له، فبعث الله تعالى إرميا[٢] من الشام، حتى تخلّص دانيال من هذه الشدّة، وأهلك مَن أراد إهلاك دانيال.

وعضدت روايتَهم، أشياءٌ رواها أصحاب الحديث، منها ما حدّثناه علىٌّ ابن أبى الطيّب الحسن بن علىّ بن مطرف الرَامَهُرْمزِى، قال: حدّثنا أحمد ابن محمد بن الجرّاح، قال: حدّثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى، قال: حدّثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيبانى، قال: إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان، فحدّثنا بعض أصحابنا عنه، عن الأجْلح الكِنْدىّ، عن عبد الله بن أبى الهديل قال: ضرّى «بُخْتَ نَصّر»[٣] أسدين، فألقاهما فى جُبٍّ وجاء بدانيال فألقاه عليهما، فلم يُهيجاه فمكث ما شاء الله، ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون، من الطعام والشراب، فأوحى الله إلى إرميا، وهو بالشام، أن أعدَّ طعامًا وشرابًا لدانيال، فقال: يا ربّ، أنا بالأرض المقدّسة، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق، فأوحى الله تعالى إليه أن أعدّ ما أمرناك به، فإنّا سنرسل إليك من يحملك، ويحمل ما أعددتَ ففعل، فأرسل الله إليه مَن حمله، وحمل ما أعدّ، حتى وقف على رأس الجُبِّ.

فقال دانيال: مَن هذا؟

---

(١) يُنسب إليه أحد أسفار العهد القديم، فى الإسكندرية شارع يحمل اسمه.

(٢) من أنبياء بنى إسرائيل مثل دانيال.

(٣) بختنصر أو نبوخذ نصّر، ملك بابلى، أزال مملكة اليهود فى القدس وحملهم أسرى إلى بلاده. وضرّى أسدين: أى جوّعهما.

قال: أنا إرميا.

قال: ما جاء بك؟

قال: أرسلنى إليك ربُّك.

قال: وذكرنى؟

قال: نعم.

قال: الحمد لله الّذى لا ينسى مَن ذكره، والحمد للّه الّذى لا يُخيّب مَن رجاه، والحمد لله الـذى مَن توكّل عليه كفاه، والحـمد لله الذى مَن وَثِقَ به لم يكِلْه إلى غيره، والحمد لله الّـذى يجزى بالإحسان إحسانًا، وبالسّيئات غـفُرانًا، والحمد لله الّذى يجدى بالصبر نجاة، والحمـد لله الّذى يكشف ضُرّنا، بعد كَرْبِنا، والحمد لله الّذى هو ثِقَتُنا، حـين تسوء ظنوننا بأعمـالنا، والحمد لله الّذى هو رجـاؤنا، حين تنقطع الحِيَلُ منّا.

●●●

٩- دَعْوَةُ المظْلُوم

حدّثنى أبو الحسن بـن أبى الطاهر محمّد بن الحسن الكـاتب، صاحب الجيش، قال:

قبض علىَّ أبو جـعفر محمّـد بن القاسم بن عبيـد الله، فى أيّام وزَارته للقاهر بالله، وعلى أبى، فحبسنا فى حجرة ضـيّقة، وأجلسنا على التّراب، وشدّد علينا، وكان يُخرجـنا فى كلّ يوم، فيطالب أبى بمال المصادرة، وأضربُ أنا بـحضرة أبى، ولا يُضرب هو، فلاقيْنا من ذلك أمرًا شديدًا صعبًا.

فلمّـا كـان بعـد أيّام، قـال لى أبى: إنّ هؤلاء الموكّلين، قـد صـارت لهم بنا حُرْمة[1]، فتَوَصَّلْ إلى مكاتبـة أبى بكر الصيرفى -وكان صديقًـا لأبى- حتّى يُنفَذَ إلينا بثلاث آلاف درهم، نفرقها فيهم، ففعلتُ ذلك، فأنفذ إلينا بالمال من يومه.

فقلتُ للموكّلين، فى عَـشىِّ ذلك اليوم: قد وجبت لكم علينا حقـوق، فخذوا هذه الدراهم، فانتفعوا بها، فامْتَنَعُوا.

فقلتُ: ما سبب امتناعكم؟ فورُّوا عن ذلك.

فقلت: إمّا قبلتم، وإمّا عرفتمونا السّبب الّذى لأجله امتناعُكم.

فقالوا: نُشفق عليكم، ونستحى من ذلك.

فقال لهم أبى: اذكروه على كلّ حال.

قالوا: قد عَـزَمَ الوزيرُ على قتلكما اللّيلة، ولا نستحـسن أخذ شىء منكما مع هذا.

فقَلِقْتُ، ودخلتُ إلى أبى بغيـر تلك الصورة، فقال: ما لك؟ فأخـبرته بالخبر، وقلت لأبى: ما أصنع بالدراهم؟

---

(١) اعتقد أبو طاهر أن سجـانيه ومعذبى ولده أصبحوا من أهله يـتحـقون الإكرام، فطلب المال لهذا، لكنهم رفضوا أخذه لما غلب لديهم أنه سيُقتل مع ولده!!

فقال: ردَّها على أبى بكر، فرددتُها عليه.

وكان أبى يصوم تلك الأيّامَ كلَّها، فلمّا غابت الشّمس، تطهّر، وصلّى المغرب، فصلّيتُ معه، ولم يُفطِر، ثم أقبل على الصّلاة والدّعاء، إلى أن صلّى العشاء الآخرة، ثم دعانى.

فقال: اجلس يا بنىّ إلى جانبى، جاثيًا على ركبتك، ففعلت، وجلس هو كذلك.

ثم رفع رأسه إلى السّماء، فقال: يا ربّ، محمّد بن القاسم ظلمنى، وحبسنى على ما ترى، وأنا بين يديك، وقد استعديْتُ إليك، وأنت أحكم الحاكمين، فاحكم بيننا -لا يزيد عن ذلك.

ثم صاح بها إلى أن ارتفع صوته، ولم يزل يكرّرها بصياحٍ ونداءٍ واستغاثة، إلى أن ظننتُ أنّه قد مضى ربع اللّيل.

فوالله ما قطعها حتّى سمعتُ الباب يُدَقّ، فذهب علىَّ أمرى، ولم أشكّ فى أنّه القتل.

وفُتِحَت الأبوابُ فدخل قوم بشموع، فتأمّلتُ، وإذا فيهم سَابُور، خادمُ القاهرة، فقال: أين أبو طاهر؟ فقام إليه أبى، فقال: ها أنذا.

فقال: أين ابنُك؟

فقال: هُوَ ذَا.

فقال: انصرفا إلى منزلكما، فخرجنا، فإذا هو قد قَبَضَ على محمّد بن القاسم، وحدَّرَهُ إلى دار القاهر.

وعاش محمّد بن القاسم فى الاعتقال ثلاثة أيّام، ومات.

●●●

١- بابُ الفَرَج

حدّثنى فتًى من الكتّاب البغداديّين، يُعرف بأبى الحسن بن أبى اللّيث، قال:

قرأتُ فى بعض الكتب، إذا دهمك أمرٌ تخافه، فبتْ وأنت طاهر، على فراش طاهر، وثياب كلّها طاهرة، وأقرأ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]... إلى آخر السورة، سبعًا، و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]... إلى آخر السورة، سبعًا: ثم قل: اللّهم اجعل لى فَرَجًا ومخرجًا من أمرى، فإنّه يأتيك فى الليلة الأوّلة أو الثانية، وإلى السابعة، أتٍ فى منامك، يقول لك: المخرج منه كذا وكذا.

قال: فحُبِسْتُ بعد هذا بسنين، حَبْسَةً طالت حتى أيِسْتُ الفَرَج، فذكرته يومًا وأنا فى الحبس، ففعلت ذلك، فلم أر فى الليلة الأوّلة، ولا الثانية، ولا الثالثة شيئًا، فلما كان فى الليلة الرابعة، فعلتُ ذلك على الرسم، فرأيت فى منامى كأن رجلاً يقول لى: خلاصُك على يدِ علىٍّ بنِ إبراهيم.

فأصبحتُ من غدٍ متعجبًا، ولم أكن أعرف رجلاً يقال له على بن إبراهيم، فلما كان بعد يومين، دخل إلىّ شاب لا أعرفه، فقال لى: قد كُفِلْتَ بما عليك، فَقُمْ، وإذا معه رسول إلى السجّان بتسليمى إليه، فقمتُ معه، فحملنى إلى منزلى، وسلّمنى فيه، وانصرف.

فقلت لهم: مَن هذا؟

فقالوا: رجل بزّاز[1] من أهل الأهْواز، يقال له علىٌّ بنُ إبراهيم، يكون فى الكَرْخ، قيل لنا إنّه صديق الذى حَبَسَك، فطرحنا أنفسَنا عليه، فتوسّط أمرك، وضمن ما عليك، وأخرجك.

قال مؤلّف هذا الكتاب: فلما كان بعد سنين، جاءنى علىٌّ بن إبراهيم هذا، وهو معاملى فى البَزّ، منذ سنين كثيرة، فذاكرته بالحديث، فقال: نعم، كان هذا

(١) البزاز: تاجر الحرير، البزّ (بفتح الباء): الحرير.

الفتى قد حبسه عَبْدُوس بن أخت أبى على الحسن بن إبراهيم النصرانىّ، خازن مُعزّ الدولة، وطالبه بخمسة آلاف درهم، كانت عليه من ضَمَانه[1]، وكان عَبْدوس لى صديقًا، فجاءنى مَن سألنى خطابه فى أمر هذا الرجل، وجرى الأمر على ما عرّفتك.

●●●

(١) معز الدولة أحد أمراء البويهيين، ونظام الضمان عُرِف فى مصر فى القرن الماضى بنظام الالتزام.

١١- دَوَاءُ المِحْنة

روى عن بُزُرْجُمِهْر بن البَخْتِكَان الحكيم[١]، الذى كان وزير أنوشَرْوَان، أنّه حبسه عند غضبه، فى بيت كالقبر ظلمة وضيقًا، وصفّده بالحديد، وألبسه الخشن من الصوف، وأمر أن لا يُزاد فى كلّ يوم، على قرصين خبزًا شعيرًا، وكفّ ملح جريش، ودَوْرَقَ ماء، وأن تُحصى ألفاظه، فتُنقل إليه، فأقام بُزُرْجُمِهْر شهورًا، لا تُسمع له لفظة.

فقال أنوشروان: أدخِلُوا إليه أصحابه، ومروهم أن يسألوه، ويفاتحوه فى الكلام، واسمعوا ما يجرى بينهم، وعرّفونيه.

فدخل إليه جماعة من المختصّين -كانوا- به، فقالوا له: أيّها الحكيم، نراك فى هذا الضيق، والحديد، والصوف، والشدّة التى وقعتَ فيها، ومع هذا، فإنّ سحنة وجهك، وصحّة جسمك، على حالهما، لم تتغيّرا، فما السبب فى ذلك؟

فقال: إنّى عملتُ جَوَارِشًا[٢] من ستّة أخلاط، آخذ منه كل يوم شيئًا، فهو الذى أبقانى على ما تَرَوْنَ.

قالوا: فصِفْه لنا، فعسى أن نُبْتَلى بمثل بلواك، أو أحدٌ من إخواننا، فنستعمله ونَصِفه له.

قال: الخَلْط الأوّل: الثقة بالله عَزَّ وجَلّ، والخَلْط الثانى: علمى بأنّ كل مقدّر كائن، والخَلْط الثالث: الصبر خير ما استعمله الممتَحنون، والخَلْط الرابع: إن لم أصبر أنا فأىّ شىء أعمل، ولِمَ أعينُ على نفسى بالجَزَع، والخَلْطُ الخامس: قد يُمكن أن أكون فى شر مما أنا فيه، والخَلْط السادس: من ساعةٍ إلى ساعةٍ فَرَج.

فبلغ كسرى كلامُه، فعفا عنه.

---

(١) حكيم فارسى له أقوال كثيرة مأثورة، نُسبت إليه النسخة الفارسية من كتاب «كليلة ودمنة» ذى الأصل الهندى. وكان وزيرًا لأنوشروان كما يدل الخبر.

(٢) الجوارش: المساحيق التى تُخلط ويتكون منها الدواء.

١٢- دُعاءُ جعفرَ الصَّادقِ لفكِّ الاعتقال

عن الفضل بن محمد اليزيدى، قال:

أراد جعفر بن محمد الحَجّ، فمنعه المنصور، فقال: الحمد لله الكافى، سبحان الله الأعلى، حسبى الله وكفى، ليس من الله منجى، ما شاء الله قضى، ليس وراء الله منتهى، توكّلتُ على الله ربّى وربكم، ما من دابة إلا وهو آخذ بناصيتها، إنّ ربّى على صراط مستقيم، اللّهم إنّ هذا عبد من عبيدك، خلقتَه كما خلقتنى، ليس له علىّ فضل، إلا ما فضّلته علىّ به، فاكفنى شرّه، وارزقنى خيره، واقدح لى فى قلبه المحبّة، واصرف عنّى أذاه، لا إله إلا أنت، سبحان الله ربُّ العرش العظيم، وصلى الله على محمد النبى وعلى آله وسلم كثيراً.

قال: فأذن له المنصور فى الحج.

●●●

١٣- موت الظالم

انصرف يحيى بنُ خالد البرمكى، من عند الهادى[١]، وقد نَاظرَه فى تسهيل خَلْع العهد عن هارون، فحلف له يحيى أنّه فَعَل، وجهد فيه، فامتنع عليه هارون.

فقال له الهادى: كذبتَ، ووالله لأفعلنّ بك وأصنعنّ، وتوعّده بكل عظيمةٍ، وصَرَفهُ.

فجاء إلى بيته، فكلّم بعض غلمانه بشىء، فأجابه بما غاظه، فلطمه يحيى، فانقطعت حَلْقَةُ خاتَمه، وطاح الفَصُّ، فاشتدّ ذلك على يحيى، وتطيّر منه، واغتمّ، فدخل عليه السيارى[٢] الشّاعر، وقد أخبِر بالقصّة، فأنشده فى الحال:

أخلاك من كلِّ الهموم سُقوطُهُ ... وأتاك بالفَرج انفراجُ الخاتِم

قد كان ضاق فَفَكَ حلقَةَ ضيقه ... فاصبر فما ضيقُ الزمان بدائِم

قال: فما أمسى حتّى ارتفعت الواعية بموت موسى الهادى، وصار الأمر إلى هارون الرشيد، فأعطاه مائة ألف درهم.

●●●

(١) كان الرشيد ولى عهد أخيه الهادى، الذى أراد خلعه ووضع ابنه مكانه، فرفض الرشيد وكان الهادى يعتقد أن يحيى البرمكى هو الذى يغرى الرشيد بالرفض.

(٢) هو شاعر مجهول، لكنه أجاد التقاط الحادثة، وتأولها بما يرضى البرمكى، فاستحق الجائزة السخية، وجاء الفَرَج.

١٤- مجيب المضطر

أخبرنا أبو سعد البقّال، قال:

كنتُ محبوسًا فى ديماس[١] الحجّاج، ومعنا إبراهيمُ التَّيمىُّ، فبات فى السّجن، فأتى رجل، فقال له: يا أبا إسحاق، فى أى شىء حُبِستَ؟

فقال: جاء العرِّيف، فتبرأ منى، وقال: إنّ هذا كثيرُ الصّوم والصّلاة، وأخاف أنّه يرى رأى الخوارج[٢].

فإنّا لنتحدّث مع مغيب الشّمس، ومعنا إبراهيم التّيْمى، إذ دخل علينا رجلُ السجن، فقلنا: يا عبد الله، ما قصّتك، وأمرك؟

فقال: لا أدرى، ولكنّى أخذت فى رأى الخوارج، ووالله، إنّه لرأى ما رأيتُه قط، ولا أحببتُه، ولا أحببتُ أهله، يا هؤلاء، ادعوا لى بوضوء، فدعونا له به، ثم قام فصلّى أربع ركعَات، ثمّ قال: اللّهم إنّك تعلم، أنّى كنت على إساءتى وظلمى، وإسرافى على نفسى، لم أجعل لك ولدًا، ولا شريكًا، ولا ندًّا، ولا كُفؤا، فإن تُعذّبْ فَعَدْل، وإن تَعْفُ، فإنّك أنت العزيز الحكيم، اللّهم إنّى أسألك يا من لا تغلّطه المسائل، ولا يشغله سمع عن سمع، ويا من لا يُبْرِمُهُ إلحاحُ الملحّين، أن تجعل لى فى ساعتى هذه، فَرَجًا ومخرجًا ممّا أنا فيه، من حيث أرجو، ومن حيث لا أرجو، وخذ لى بقلب عبدك الحجّاج، وسمعِه، وبصره، ويده، ورجله، حتى تُخرجَنى فى ساعتى هذه، فإنّ قلبه، وناصيته، بيدك، يا رب، يا رب.

---

(١) أطلقت هذه التسمية على سجن الجحاح، إذ كان أشبه بخندق تحت الأرض، وفى اللغة: الديماس: السرب المظلم، ومنه: دمس الليل.

(٢) هذا دليل على انتشار العرفاء فى زمن الحجاج وهم أشبه بالشرطة السرية أو الكفلاء.

قال: وأكثـر، فوالذى لا إله غيره، ما انقطع دعاؤه، حـتّى ضُربَ بابُ السّجن وقيل: أين فلان؟

فقام صاحبنا، فقـال: يا هؤلاء، إن تكن العافية، فوالله، لا أدَع الدّعاء لكم، وإن تكن الأخرى، فجمع الله بيننا وبينكم، فى مستقر رحمته.

قال: فبلغنا من الغد، أنّه خُلّى سبيله.

●●●

١٥- الأنبياءُ والمساكين

عن أنس بن مالك، عن النّبى ﷺ، قال:

«كان ليعقوب عليه السّلام، أخ مؤاخٍ فى الله عزَّ وجَلَّ، فقال ليعقوب: ما الذى أذهب بصرَك، وقوّس ظهرَك؟

فقال: أمّا الذى قوّس ظهرى، فالحزن على بِنْيَامين، وأمّا الذى أذهب بصرى، فالبكاء على يُوسُف.

فأوحى الله تعالى إليه: أما تستحى، تشكونى إلى عبدى.

قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، ثم قال: يا ربّ، ارحم الشيخ الكبير، أذهبْتَ بصرى، وقوّست ظهرى، أردد علىّ ريحانتى يوسف، أشمّه، ثم افعل بى ما شئتَ.

فقال له جبريل عليه السّلام: إنّ ربّك يُقْرِؤُك السّلام، ويقول لك: أبْشِرْ، وليفرحْ قلبُك، فوعزّتى لو كانا ميتين، لأنشرتهما لك، فاصنع طعامًا للمساكين وادعهم إليه، فإنّ أحبّ عبادى إلىّ، الأنبياءُ والمساكين، وإنّ الذى ذهب ببصرك، وقوّس ظهرك، وسبب صنع إخوة يوسف به ما صنعوا، أنكم ذبحتم شاةً، فأتاكم رجل صائم، فلم تطعموه.

فكان يعقوب بعد ذلك إذا أراد الغداء، أمر مناديه، فنادى: من كان يريد الغداء من المساكين فليتغدّ مع يعقوب، وإن كان صائمًا أمر مناديه، فنادى: من كان صائمًا من المساكين فليُفطر مع يعقوب».

●●●

١٦- الفقيهُ والجبَّار!!

حدثنى بعض شيوخنا:

أنّ الحسن البَصرى دخل على الحجّاج بواسط[١]، فلمّا رأى بناءه قال: الحمد لله، أنّ هؤلاء الملوك ليَرَوْن فى أنفسهم عِبَرًا، وأنّا لنرى فيهم عِبَرًا، يعَمِد أحدُهم إلى قصرٍ فيشيّده، وإلى فَرْش فيتّخذه، وقد حفّ به ذباب طمع، وفراش نار، ثم يقول: ألا فانظروا ما صنعتُ، فقد رأينا -يا عدوّ الله- ما صنعتَ، فماذا يا أفسق الفسَقَة، ويا أفجر الفَجرة، أما أهل السماء فلعنوك، وأما أهل الأرض فمقتوك.

ثم خرج وهو يقول: إنّما أخذ الله الميثاق على العلماء، ليُبيِّنُنه للنّاس، ولا يكتمونه.

فاغتاظ الحجّاج غيظًا شديدًا، ثم قال: يا أهل الشّام، هذا عُبَيد أهل البَصرة يشتمنى فى وجهى فلا ينكر عليه أحد، علىّ به، والله لأقتلنّه.

فمضى أهلُ الشام، فأحضروه، وقد أعلم بما قال، فكان فى طريقه يحرّك شفتيه بما لا يُسمَع.

فلما دخل على الحجّاج، رأى السّيف والنِّطع[٢] بين يديه وهو متغيّظ، فلمّا وقعت عليه عينُ الحجّاج، كلّمه بكلام غليظ، ورفق به الحسن، ووعظه.

فأمر الحجّاج بالسيف والنِّطْع فَرُفِعَا، ثم لم يزل الحسن يمر فى كلامه، إلى أن دعا الحجاج بالطعام، فأكلا، وبالوضوء فتوضّأ، وبالغالية فغلّفه بيده، ثم صرفه مكرّمًا.

وقال صالح بن مِسمار: قيل للحسن بن أبى الحسن: بِمَ كنت تحرّك شفتيك؟

---

(١) واسط: منطقة فى جنوب العراق تجاه فارس.

(٢) النطع: بساط من الجلد يقف فوقه المحكوم بقتله.

قال: قلتُ: يا غياثي عند دعوتي، ويا عُدّتي في ملمّتي، ويا ربّي عند كُربتي، ويا صاحبي في شدّتي، ويا وليي في نعمتي، ويا إلهي، وإله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وموسى، وعيسى، ويارب النبيين كلّهم أجمعين، ويارب كهيعص، وطه، وطس، ويس، ورب القرآن الحكيم، يا كافي موسى فرعون، ويا كافي محمد الأحزاب، صلّ على محمّد وآله الطيّبين الطاهرين الأخيار، وارزقني مودّة عبدك الحجّاج، وخيره، ومعروفه، واصرف عنّي أذاه، وشرّه، ومكروهه، ومعزّته.

فكفاه الله تعالى شرّه بمنّه وكرمه.

●●●

١٧- مَنْ يَرْحم

وذكر المدائنيُّ في كتابه، قال: وجَّه سليمانُ بن عبد الملك، حين ولي الخلافة، محمد بنَ يزيد إلى العراق، فأطلق أهل السجون، وقسّم الأموال، وضيّق على يزيد بن أبي مسلم كاتبِ الحجّاج، فظفر به يزيد بإفريقية لما وليها في شهر رمضان عند المغرب، وفي يده عنقود عنب.

فجعل محمدٌ يقول: اللهم احفظ لي إطلاقي الأسرى، وإعطائي الفقراء.

فقال له يزيد حين دنا منه: محمّد بن يزيد؟ ما زلتُ أسأل الله أن يُظْفِرني بك.

قال له: وما زلتُ أسأل الله، أن يجيرني منك.

قال: والله، ما أجارك، ولا أعاذك منّي، ووالله لأقتلنّك قبل أن آكل هذه الحبّة العنب، ووالله لو رأيتُ ملك الموت يريد قبض روحك، لسبقته إليها.

فأقيمت الصّلاة، فوضع يزيد الحبّة العنب من يده، وتقدّم، فصلّى بهم.

وكان أهلُ إفريقية قد أجمعوا على قتله، فلما ركع، ضربه رجل منهم على رأسه بعمود حديد، فقتله.

وقيل لمحمّد: اذهب حيث شِئتَ، فمضى سالمًا.

●●●

١٨- مَنْ القتيلُ؟

وذكر القاضى أبو الحسين فى كتابه، قال:

حُبس رجل قد وجب عليه حدّ، فلمّا رُفع خبره، أمِرَ بضرب عنقه.

قال المخبر: فـدخلتُ إلى الحبس إلى رجل بينى وبينه صُحبـة، لأعرف خبره، فرأيتُ الذى أمر بضرب عنقه يلعب بالنَّرد[1].

فقلت للذى دخلـتُ عـليه، وأنا لا أعلم أنّ قد أمِـرَ بضرب عنق ذلك الرجل: ما أفرغ قلبُ هذا، يلعب بالنّرد وهو محبوس.

فقـال: إنّ أطرف من هذا أنّه قد أمِرَ بضَـرْب عُنقه، وقد عرف بذلك، فـهوذا ترى حاله.

قال: فازددتُ تعجباً، وفطن الرجل لما نحن فيـه، فأخذ بيده فَصّا من فصوص النّرد فرفعه، وقال: إلى أن يسقط هذا إلى الأرض، مائة ألف فرج، ورمى بالفصّ من يده.

قال: فخرجتُ، وأنا متعجّب منه، مفكّر فى قوله.

فما أمسْـينا ذلك اليوم، حتى شَغَب الجند، وفُتحت السـجون، وخرج من كان فيها، والرجل فيهم، وسلّمه الله تعالى من القتل.

●●●

(١) النرد: طاولة الزهر.

١٩- مَنْ يَأمنُ للحيَّة؟!

كان فى بنى إسرائيل، رجلٌ فى صحراء قريبةٍ من جبل، يعبد الله تعالى، إذ مُثِّلت له حيّة، فقالت له: قد أرهقنى من يريد قتلى، فأجِرْنى، أجارك الله فى ظلّه، يوم لا ظلّ إلا ظلّهُ.

قال لها: وممّن أجيرك؟

قالت: من عدوّ يريد قتلى.

قال: وممّن أنت؟

قال: من أهل لا إله إلا الله.

قال: فأين أخبّيك؟

قالت: فى جوْفك، إن كنت تريد المعروف.

ففتح فاه، وقال: ادخلى، ففعلت.

فلما جاء الطالب، قال له: رأيتَ حيَّةً تسعى؟

فقال العابد: ما أرى شيئًا، وصدق فى ذلك.

فقال له الطالب: الله.

فقال: الله.

فتركه، ومضى، ثم قال لها: اخرجى الآن.

فقالت: إنى من قوم لا يكافئون على الجميل إلا بقبيح.. لابد من قتلك!!

فقال لها الرجل: ليس غنًى عن هذا؟

قالت: لا.

قال: فأمهلينى، حتى آتى سفح جبل. فأصلّى ركعتين، وأدعو الله تعالى، وأحفر لنفسى قبرًا، فإذا نزلته، فافعلى ما بدا لك.

قالت: افعل.

فلما صلّى، ودعا، أوحى الله إليه: إنّى قد رحمتك، فاقبض على الحيَّة، فإنّها تموت فى يدك، ولا تضرّك.

ففعل ذلك، وعاد إلى موضعه، وتشاغل بعبادة ربّه.

●●●

٢٠- الفَرَجُ على لِسَان طَائِر!!

وجدتُ في بعض الكتب:

حُكي أنّ رجلاً خرج في وجه شتاء، فابتاع بأربعمائة درهم -كان لا يملك غيرها- فراخَ الزّرْياب[١] للتجارة.

فلمّا ورد دكّانه ببغداد، هبت ريح باردة، فأماتتها كلها إلا فرخًا واحدًا، كان أضعفَهَا وأصغرها، فأيقن بالفقر.

فلم يزل يبتهل إلى اللّه تعالى ليلته أجمع بالدعاء والاستغاثة، ويسأله الفَرَج مما لحقه، وكان قوله: يا غياثَ المستغيثين، أغِثْني.

فلمّا انجلى الصبح، زال البْردُ، وجعل ذلك الفرخ الباقي ينفش ريشَه، ويقول: يا غياثَ المستغيثين، أغِثْني.

فاجتمع الناسُ على دكان الرجل، يرون الفرخ، ويسمعون الصوت.

فاجتازت جارية راكبة، من جوارى أمّ المقتدر، فسمعت صوتَ الطائر، ورأته، واستامته[٢]، وتقاعد الرجل، فاشترته بألفي درهم، وأعطته الدراهم، وأخذت الطائر.

●●●

(١) الزرياب: طائر صغير جميل، يمكنه محاكاة الأصوات كالببغاء.

(٢) عرفت ثمنه، وناقشت فيه.

٢١- العَقْل!!

عن نوف البَكالى:

أنّ نبيّاً أو صدّيقًا ذبح عجلاً بين يدى أمّه، فخَبل[1]، فبينما هو كذلك ذات يوم، تحت شجرة فيها وكر طير، إذ وقع فَرْخُ طائرٍ فى الأرض، وتغبر فى التراب، فأتاه الطائر، فجعل يطير فوق رأسه، فأخذ النبى أو الصديق الفرخَ، فمسحه من التراب، وأعاده فى وكره، فرد اللَّه عَزَّ وجَلَّ عليه عقله.

●●●

(١) أصابه الخبل، أى الذهول والهوس، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» والحيوان لا يعقل ولكنه يشعر، ويدرك.

٢٢- دُعاء زَيْن العابِدين

عن طاووس[١]، قال:

إنّى لفى الحجْر[٢] ذات ليلة، إذ دخل علىّ بن الحسين عليهما السلام، فقلت: رجلٌ صالحٌ من أهل بيت الخَيـر، لأستمعنّ إلى دعائه الليلة، فـصلّى، ثم سجد، فأصغيتُ بسمعى إليه، فسمعته يقول: عُبَيْدُكَ[٣] بفنائك، مسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، سائلك بفنائك.

قال طاووس: فحفظتهنّ، فما دعوتُ بهنّ فى كرب، إلا فرجّ اللّه عنّى.

●●●

(١) طاووس بن كيـسان: فقيه محدث من التابعين، وهو يمنّى.

(٢) حجْر إبراهيم بفناء الكعبة.

(٣) عُبَيْدُك (بصيغة المصغر): تصغير عبد.

٢٣- لا يَرْضَى الظُّلْم.. حتى للمجوسىّ

وجدتُ فى بعض الكتب: حدَّث على بن المعلّى، عن الزهرى البصرى، قال:

كنّا جلوسًا عند أبى عبد اللَّه جعفر بن محمد (الصادق) وذكر حديثًا فيه: أنّ أبا عبد اللَّه قال: إنّ قوم سَدُوم، هلكوا بمجوسى.

قيل: ما سبب ذلك؟

قال: أما تعرفون بالبصرة عندكم جسرًا، يقال له: جسر الخشب؟

قلنا: بلى.

قال: ذاك جسرُ سدوم، جاءه رجل مجوسى، ومعه زوجته حاملاً، راكبة حمارًا، تريد العبور فمنعوها إلا أن يأخذوا خمسة دراهم، فأبيا أن يعطيا ذلك، فطلبوا منهما عشرة دراهم، فأبيا أن يعطيا ذلك، فشمصوا الحمار، وقطعوا ذنبه، فاضطربت المرأة، فأسقطتْ جَنِينَها، فاشتدّت بالمجوسى محنتُه.

وقال: إلى مَن نتظلّم فيما فُعِلَ بنا؟

فقيل: إلى صاحب هذا القصر.

فدخل إليه، وقال: فُعِلَ بى كَيْتَ وكَيْتَ.

قال: لا بأس، ادفع إليهم حمارك، يعملوا عليه إلى أن ينبت ذَنَبهُ، وادفع إليهم زوجتك، حتّى يطؤوها إلى أن تحمل.

فرفع المجوسى رأسه إلى السماء، وقال: اللَّهم، إن كان هذا حكم من عندك، وأنت به راضٍ، فأنا به أرضى، وأرضى.

فبعث اللَّه إليه ملكًا من الملائكة فأخذ بِعَضُده، وعضد زوجته، فعبر بهما الجسر.

فقال له: يا عبد اللَّه مَن أنت؟ فلقد مننتَ علىّ.

قـال: أنا مَلَكٌ من الملائكة، لما أن قلت: اللّهم إن كـان هذا حكم من عندك، وأنت به راضٍ، فأنا أرضى وأرضى، بعـثنى اللّه لأخلصك، فالتـفِتْ إلى القوم، وانظر ما أصابهم.

فالتفت المجوسى، فإذا القوم قد خُسِفَ بهم.

●●●

٢٤- الخائن

وحكى أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق التَّنوخى:

أنّ رجلاً أمسى فى بعض محالّ الجانب الغربى من مدينة السلام، ومعه دراهم لها قدر.

فخاف على نفسه من الطائف[١]، أو من بلية تقع عليه، فصار إلى رجل من أهل الموضع، وسأله أن يبيته عنده، فأدخله.

فلمّا تيقن أنّ معه مالاً، حدث نفسه بقتله، وأخذ المال.

وكان له ابن شاب، فنوّمه بحذاء الرجل، فى بيت واحد[٢]، ولم يُعلم ابنه ما فى نفسه، وخرج من عندهما، وقد عرف مكانهما، وطُفِئَ السراج.

فقُدّر أنّ الابن انتقل من موضعه إلى موضع الضيف، وانتقل الضيف إلى موضع الابن، وجاء أبوه يطلب الضيف، فصادف الابن فيه، وهو لا يشكّ أنّه الضيف، فخنقه، فاضطرب، ومات.

وانتبه الضيف باضطرابه، وعرف ما أريد به، فخرج هاربًا، وصاح فى الطريق، ووقف الجيران على خبره، وأغاثوه، وخرجوا إليه.

وأخِذَ الرجل، فقُرِّر، فأقرَّ بقتل ولده، فحُبس، وأخِذَ المال من داره، فردَّ على الضيف، وسَلِمَ.

●●●

(١) الطائف: العسس، أو جنود الحراسة التى تطوف بالليل فى المدينة.

(٢) البيت: الغرفة، أما مجموع الغرف فيكون «الدار».

٢٥- دِرْهَمٌ طيِّبٌ

إنّ رجلاً خرج بغزل، فباعه بدرهم ليشترى به دقيقًا، فمرّ على رجلين، كلّ واحد منهما آخذ برأس صاحبه.

فقال: ما هذا؟

فقيل: يقتتلان فى درهم، فأعطاهما ذلك الدرهم، وليس له شيء غيره.

فأتى إلى امرأته، فأخبرها بما جرى له، فجمعتْ له أشياء من البيت، فذهب ليبيعها، فكسدت عليه، فمر على رجل ومعه سمكة قد أرْوَحَتْ.

فقال له: إنّ معك شيئًا قد كسد، ومعى شيء قد كسد، فهل لك أن تبيعنى هذا بهذا؟ فباعه.

وجاء الرجل بالسمكة إلى البيت، وقال لزوجته: قومى فأصلحى أمر هذه السمكة، فقد هلكنا من الجوع.

فقامت المرأة تصلحها، فشقّت جوف السمكة، فإذا هى بلؤلؤة، قد خرجت من جوفها.

فقالت المرأة: يا سيدى، قد خرج من السمكة شيء أصغر من بيض الدجاج، وهو يقارب بيض الحمام.

فقال: أرينى، فنظر إلى شيء ما رأى فى عمره مثله، فطار عقله، وحار لبّه.

فقال لزوجته: هذه أظنّها لؤلؤة.

فقالت: أتعرف قدر اللؤلؤة؟

قال: لا، ولكنى أعرف مَن يعرف ذلك، ثم أخذها، وانطلق بها إلى أصحاب اللؤلؤ، إلى صديق له جوهرى، فسلم عليه، فرد عليه السلام، وجلس إلى جانبه يتحدث، وأخرج تلك البيضة.

وقال: انظر كم قيمة هذه؟

قال: فنظر زمانًا طويلاً، ثم قال: لك بها علىَّ أربعون ألفا، فإن شئت أقبضتك المال الساعة، وإن طلبتَ الزيادة، فاذهب بها إلى فلان، فإنه أثمنُ بها لك منّى.

فذهب بها إليه، فنظر إليها واستحسنها، وقال: لك بها علىَّ ثمانون ألفًا، وإن شئتَ الزيادة، فاذهب بها إلى فلان، فإنى أراه أثمنَ بها لك منى.

فذهب بها إليه، فقال: لك بها على مائة وعشرون ألفًا، ولا أرى أحدًا يزيدك فوق ذلك شيئًا.

فقال: نعم، فوزن له المال، فحمل الرجل فى ذلك اليوم اثنتى عشرة بِدْرَة، فى كل بدرة عشرة آلاف درهم، فذهب بها إلى منزله، ليضعها فيه، فإذا فقير واقف بالباب، يسأل.

فقال: هذه قصتى التى كنت عليها، ادخل، فدخل الرجل.

فقال: خذ نصف هذا المال، فأخذ الرجل الفقير، ستّ بِدَرٍ، فحملها، ثم تباعد غير بعيد، ورجع إليه.

وقال: ما أنا بمسكين، ولا فقير، وإنّما أرسلنى إليك ربّك عَزَّ وجَلَّ، الذى أعطاك بالدرهم عشرين قيراطًا، فهذا الذى أعطاك قيراط منه، وذَخَرَ لك تسعة عَشَرَ قيراطًا.

●●●

٢٦- عَطَاءُ رَسولِ اللَّه ﷺ

أنّ عطارًا من أهل الكَرخ، كان مشهورًا بالستر والأمانة، فركبه دَيْن، وقام من دكانه، ولزم بيته مستترًا، وأقبل على الدعاء والصلاة، إلى أن صلى ليلة الجمعة صلاة كثيرة، ودعا، ونام، فرأى النبى ﷺ فى منامه، وهو يقول له: اقصُد على ابن عيسى، وكان إذ ذاك وزيرًا، فقد أمرته أن يدفع إليك أربعمائة دينار، فخذها وأصلح بها أمرك.

قال الرجل: وكان علىَّ ستمائة دينار دَيْنًا، فلما كان من الغد، قلتُ: قد قال النبى ﷺ: «مَن رآنى فى منامه فقد رآنى، فإنّ الشيطان لا يتمثل بى»، فَلِمَ لا أقصد الوزير.

فلمّا صرتُ ببابه، مُنِعتُ من الوصول إليه، فجلستُ إلى أن ضاق صدرى، وهممتُ بالانصراف، فخرج الشافعى صاحبُه، وكان يعرفنى معرفة ضعيفة، فأخبرته الخبر.

فقال: يا هذا، الوزير واللَّه فى طلبك منذ السَّحَر إلى الآن، وقد سألنى عنك فأنسيتُك، وما عرفك أحد، والرسل مبثوثة فى طلبك، فكن بمكانك، ثم رجع فدخل، فلم يكن بأسرع من أن دُعى بى، فدخلتُ إلى علىّ بن عيسى.

فقال لى: ما اسمك؟

قلت: فلان ابن فلان العطار.

قال: من أهل الكَرْخ؟

قلت: نعم.

قال: أحسن اللَّهُ إليك فى قصدكَ إيّاى، فواللَّه ما تهنّأتُ بعيش منذ البارحة، فإنّ رسول اللَّه ﷺ، جاءنى البارحة فى منامى، فقال: أعطِ فلانا ابن فلان العطار

من أهل الكَرَخ أربعمائة دينار يُصلح بها شأنه، فكنتُ اليوم فى طلبك، وما عرفك أحد.

فقلت: إنّ رسول اللَّه ﷺ جاءنى البارحة، فقال لى كَيْتَ وكَيْتَ.

قال: فبكى علىُّ بنُ عيسى، وقال: أرجو أن تكون هذه عناية من رسول اللَّه ﷺ بى.

ثم قال: هاتوا ألف دينار، فجاءوه بها عَيْنًا.

فقال: خذ منها أربعمائة دينار، امتثالاً لأمر رسول اللَّه ﷺ، وستمائة دينار هَبَةً منّى لك.

فقلت: أيّها الوزير ما أحبُّ أن أزداد على عطاء رسول اللَّه ﷺ شيئًا، فإنى أرجو البركة فيه، لا فيما عداه.

فبكى علىّ بن عيسى، وقال: هذا هو اليقين، خذ ما بدا لك.

فأخذتُ أربعمائة دينار، وانصرفتُ، فقصصتُ قصّتى على صديق لى، وأريته الدنانير، وسألته أن يقصد غُرَمَائى، ويتوسط بينى وبينهم، ففعل.

وقالوا: نمهله بالمال ثلاث سنين.

فقلت: لا، ولكن يأخذون منى الثلث عاجلاً، والثلثين فى سنتين، فى كل سنة ثلثًا، فرضوا بذلك، وأعطيتهم مائتى دينار، وفتحتُ دكانى بالمائتى دينار الباقية.

فما حال الحَوْل إلا ومعى ألفُ دينار، فقضيْتُ دَيْنى، وما زال مالى يزيد، وحالى يصلح، والحمد للَّه.

●●●